

اسم المادة: الأقسام الثلاثة في الإيمان بالله

من سلسلة: العقيدة وتعزيز اليقين

لفضيلة الشيخ: عبد المنعم مطاوع

حياة

Way2allah.com

way2allahcom

إنتاج فريق التفريغ بشبكة الطريق إلى الله

اسم المادة: الأقسام الثلاثة في الإيمان بالله
من سلسلة: العقيدة وتعزيز اليقين
لفضيلة الشيخ: عبد المنعم مطاوع



الحمد لله رب العالمين قيوم السماوات والأراضين مالك يوم الدين، سبحانه جل من إله عظيم، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأشهد أن لا إله إلا الله إلهًا أحدًا فردًا صمدًا، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه وخليله. أما بعد؛

فإن أصدق الحديث كتاب الله –تعالى–، وخير الهدي هدي محمد –صلى الله عليه وسلم– وشر الأمور محدثاتها،وكل محدثة بدعة،وكل بدعة ضلالة،وكل ضلالة في النار، أجارني الله وإياكم منها. أما بعد؛

فمرحًبا بكم إخواني وأخواتي ممن يتابعون هذا البرنامج؛ برنامج حياة وهذه دروس العقيدة وتعزيز اليقين، نسأل الله –سبحانه وتعالى– أن يوفقنا وإياكم إلى العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم في عداد عباده المؤمنين المحسنين، اللهم آمين.

انتهى بنا الحديث في المرة الماضية للحديث عن أهمية الإيمان في حياة الإنسان،وكيف أن مصير العبد مرتهن بإيمانه، وحظه من النعيم مرتهن به وإلا فالشقاء والعذاب الدنيوي والأخروي.

وذكرنا أن الإيمان بالله –سبحانه وتعالى– يقتضي أربعة أمور:

الأمر الأول كان الإيمان بوجود الله –سبحانه وتعالى–، وذكرنا بأن هذا الأمر دلت عليه الفطرة، ودل عليه العقل، ودل عليه الحس، ودل عليه إجماع الأمم، ودل عليه طبعًا الشرع.

وقسم العلماء بعد ذلك توحيد الله –سبحانه وتعالى– إلى ثلاثة أقسام: فقالوا توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

وبعضهم يقسمه إلى قسمين: فيقول التوحيد العلمي الخبري؛ فيضم توحيد الربوبية مع توحيد الأسماء والصفات، وتوحيد القصد الإرادي الطلبي يجعله لتوحيد الألوهية.

توحيد الربوبية

نبدأ الحديث عن توحيد الربوبية، ولا بد أن نقول معاشر الإخوة والأخوات بأن هذا التقسيم تقسيم نظري، كما قسم العلماء أي شيء في العلوم الأخرى، هتجد هذا التقسيم في علوم اللغة وفي علوم الأصول وفي الفقه والتفسير وسائر العلوم. فهذا أمر ليس بمنكر وهو مستنبط من الأدلة، وهذا يراد منه تيسير تعلم المتعلم أمر دينه والاعتقاد الصحيح. فالذي ينكر ويقول بأن هذا أمر مخترع أو أن ابن تيمية هو الذي اخترعه ولم ُيسبق إليه، هذا كلام ينم عن جهل شديد وخصومة لا تبقي ولا تذر.

يقولون لا مشاحة في الاصطلاح؛ أن هذا التقسيم توارد عليه العلماء وساروا عليه ولم ينكروه، فخلاص لا بأس به أبدًا يعني.



فنبدأ بتوحيد الربوبية ومعناه الاعتقاد الجازم والإقرار الكامل والاعتراف التام بأن الله –تعالى– وحده رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه. يبقي الملك والخلق والرزق، لا شريك له ولا ند ولا سمي له –سبحانه– في هذه الأمور، حي لا يموت –سبحانه وتعالى–، حياته لم تسبق بعدم ولا يلحقها فناء، وقيوم لا ينام، لأن السماوات والأرض وما فيهما قام به –سبحانه وتعالى– فهو القائم علي كل نفس بما كسبت –عز وجل–، منزه عن النقص والعجز والعيب، بديع السماوات والأرض مدبر العالم والمتصرف فيه والقادر عليه، له الحكم وله الأمر –جل في علاه–، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،وكل من في السماوات والأرض عبد له وفي قبضته وتحت قهره وسلطانه، والإيمان بقضاء الله وقدره والإقرار بعدل الله.

وخلاصته هو توحيد الله –تعالى– وإفراده بأفعاله وقد قامت الأدلة الشرعية على وجوب الإيمان بربوبيته –سبحانه وتعالى– والقرآن الكريم ملئ بذكر الأدلة على ربوبيته. يكفي أننا نستفتح كتاب الله –عز وجل– بقولنا: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ فهو ربهم خلقهم من عدم، ورباهم بنعمه –سبحانه وتعالى–، ومن أجل النعم أن يرزق الإنسان نعمة الإيمان إذ كفر به الكافرون وحرم الأشقياء من الإيمان به –سبحانه–.

وقال –تعالى–: "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ" الأعراف:٥٤، وقوله –سبحانه–: "هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا" البقرة:٢٩، وقوله –عز وجل–: "إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ" الذاريات:٥٨، قال –سبحانه–: "قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ" المؤمنون:٨٨.

وهذا الوع من التوحيد أقر به في الجملة كفار قريش حتى قال الله –عز وجل– عنهم: "وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" لقمان:٢٥، وقوله –عز وجل–: "قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ" يونس:٣١.

وكما ذكرنا في أدله وجود الله أن ده أمر فطري، هكذا أيضا توحيد الربوبية أمر فطري، وأن الناس جُبلُوا وفُطِروا وخُلِقوا على أن يُقِرّوا بأن الله –عز وجل– ربهم، هو الذي خلقهم لا رب لهم سواه –سبحانه وتعالى–، ولا خالق ولا رازق ولا محيي ولا مميت إلا هو –عز وجل–.

طبعًا اللي أنكر وجود الله من باب أولى أنكر ربوبيته –سبحانه وتعالى–، زي الدهريين فيما سلف أو الشيوعيين والملاحدة وغيرهم في الحديث.

ولو أقر الإنسان بتوحيد الربوبية لله –عز وجل– هذا لا يُدْخِل صاحبه في الإسلام، ولا يعصم دمه وماله، ولا ينجيه في الآخرة من عذاب النار والخلود فيها حتى يلتزم بالوع الثاني من التوحيد، وهو توحيد الألوهية أو توحيد العبادة كلاهما تسمية صحيحة.

فطبعا لا شك أن توحيد الربوبية فيه إقرار بعظمة الله –سبحانه وتعالى–، وتفرده بالخلق والملك والتدبير، قال الله –تعالى–: "ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ" الأنعام:١٠٢، فربنا بيذكر الخلق بأنه خلقهم وخلق غيرهم، ثم يأمر بعبادته –سبحانه وتعالى–.

ولذلك دايما تجد ارتباط بين مسألة الخالقية ومسألة الأمر بالعبادة "أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ" الأعراف:٥٤ –سبحانه وتعالى–، ولما سئل النبي –صلى الله عليه وسلم–: "أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قالَ: أنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ"[1] تجعل لله ندًا وهو خلقك.

وقال الله –سبحانه تعالى– في سورة الروم: "اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ" الروم:٤٠.

وتوحيد الربوبية يؤدي إلى الإقرار بتوحيد الألوهية أي إفراد الله –عز وجل– بالعبادة وحده لا شريك له.

قال الله –تعالى–: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ" البقرة٢١:٢٢.

---

[1] صحيح البخاري



فجمع الله -عز وجل- في هذه الآية الكريمة بين أنه الخالق للسماوات والأرض وما فيها وبين أمره -سبحانه وتعالى- لهم بالعبادة، وألا يجعلوا معه أندادًا -سبحانه وتعالى- يؤدون لها العبادة كما يؤدونها لله -سبحانه وتعالى-.

وذكرنا بأن هذا الأمر فطري جِبِلّي أن الإنسان يوقن بأن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي خلقه، وهو الذي رزقه، ولذلك يجب عليه أن يؤمن بربوبيته -سبحانه وتعالى-، ثم يؤدي بعد ذلك حق الرب -سبحانه وتعالى- في التوحيد والعبادة.

ولذلك قال الله -سبحانه وتعالى- في سورة الحديد: "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ" الحديد١٦:١٧.

هناك كلام طيب جدًا للحافظ ابن كثير عبارة ذهبية رائعة: "فيه إشارة إلى أن الله -تعالى- يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج -أي يدخل- إليها النور بعدما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لما يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال -سبحانه وتعالى-".

ولذلك فأنا بنصح نفسي وإخواني دائما ولا سيما ونحن نعيش هذه الحياة المعاصرة النكدة التي غلبت المادية على الناس،وكثرت فيها تشعبات الحياة ومطالبها، أن يجعلوا لأنفسهم ولو كل يوم ربع ساعة أو نصف ساعة يخلون للتدبر في آيات الله الكونية وآياته الشرعية.

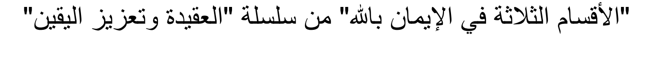
ذكرنا في نهاية درسنا الماضي قوله -سبحانه وتعالى-: "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" فصلت:٥٣، وهذه الآيات الشرعية انظروا كيف قال الله -سبحانه وتعالى- فيها، فلا بد من أن نهتم بهذين الأمرين وهما طريقان عظيمان للوصول إلى معرفة الله -سبحانه وتعالى-. دعانا الله إليهما دعوةً إن احنا نتعرف عليه من خلال الكون والأنفس، ومن خلال آياته الشرعية الكتاب العزيز "كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" ص:٢٩.

فلابد أن نفرغ من أنفسنا وقتا نتعرف على ربنا -سبحانه وتعالى- في كونه، في سمائه، في أرضه، فيما بثه من الخلق، انظر إلى العجب في خلقك يا ابن آدم حيث لم تكن من قبل شيئا مذكورًا فسواك سميعًا بصيرًا عاقلًا، تعطي وتأخذ وتملأ الحياة ضجة كما يقول الله -سبحانه وتعالى- لعبده الكافر يوم القيامة: " أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لكَ الخَيْلَ والإِبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟"وكل ده والعبد بيقول بلى يا رب، بلى يا رب، ثم يقول الله -عز وجل-: "أَفظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلاقِيَّ؟" فيقول العبد: لا، كان كافر بلقاء الله -سبحانه وتعالى-، فيقول الله -عز وجل-: "فإِنِّي أَنْساكَ كَما نَسِيتَنِي"[٢] خلاص.

فلابد أن نعطي لأنفسنا فرصة في وسط هذه الحياة وضجيجها نتأمل في هذا الكون، نتفرج على برنامج العلم والإيمان، عالم البحار، عالم الحيوان، الأشياء الفلكية وغيرها، وبديع صنع الله -سبحانه وتعالى-، حاجات تأخذ بالألباب، لن نفتر عن قولنا: سبحان الله، سبحان الله، فهذا مما يزيد في إيمان العبد ويجعله يري عظمة الله في خلقه، "صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ" النمل:٨٨، نعطي لأنفسنا فرصة أيضًا لتدبر القرآن، ليس المقصود فقط هو تلاوة القرآن بل تدبر القرآن هذا مقصد أصلي أن نعايش هذا الكتاب العزيز، ونتأثر به لأن الله -سبحانه وتعالى- قال: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ -تُثني فيه الأخبار وتُعاد وتُبدأ- تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ" الزمر:٢٣، فلابد إذا قرأنا القرآن أن نتأثر "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" ق:٣٧، ولا ذكرى أعظم من تذكير القرآن "فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ" ق:٤٥، "لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ" الأنعام:١٩.

---

[٢] صحيح الجامع





وكان هذا منهج لأهل العلم أصلًا في ربوبية الله. مثلًا الأعرابي –قصته مشهورة– لما قالوا له بم عرفت ربك؟ قال: إن الأثر يدل على المسير، وإن البعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير. –سبحانه وتعالى–

عندك الإمام أبي حنيفة؛ جماعة من السومانية زي الدهريين كده بينكروا أصلًا إن ربنا هو الخالق ولا هو الرب وهكذا، وبعدين دعوه إلى مناظرة يعني عاوزين يغلبوا الإمام أبي حنيفة، والإمام أبي حنيفة كان أية في الذكاء أصلًا، لما سأل الإمام الشافعي الإمام مالك: هل رأيت أبا حنيفة؟ قال: رأيت إنسانًا لو أراد أن يقنعك بأن هذه الأسطوانة من ذهب لفعل. اللي هو عمود المسجد –هو من الأسمنت أو الخشب أو الحديد– لو عاوز يبينلك إن ده ذهب هيقنعك. فكان آية في الذكاء؛ المهم تأخر عن الموعد قليلًا فلما لاموه –بعد ما جه–، قال: انتظروا لقد رأيت عجبًا، قالوا: وما رأيت يا أبا حنيفة؟ قال: رأيت سفينة أتت من بلاد بعيدة تمخر عباب البحر حتي وصلت إلى الميناء، ثم قامت بإفراغ حمولتها جميعًا، وكانت تحمل بضائع كثيرة، ثم انطلقت من حيث أتت وليس فيها أحد من الناس، قالوا له: طب وده كلام، معقولة سفينة جاية مفيش عليها حد يسوقها ومحملة بضاعة وجت البضاعة نفسها حطتها وانطلقت حيث أتت؟ قال: إذا كنتم تنكرون هذا في أمر سفينة وهي لا تساوي في ملك الله شيئا فكيف تعقلون أن هذا الكون وما فيه يدار بغير خالق –سبحانه وتعالى–؟ فأقام عليهم الحجة وغلبهم رحمه الله –تبارك وتعالى–.

ولما سأل الرشيد الإمام مالك بم عرفت ربك؟ فاستدل له باختلاف الأصوات والنغمات والألوان "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" الروم:٢٢، دي آية من آيات ربنا –سبحانه وتعالى– وياريت نتدبر سورة الروم؛ وكل ما قال الله –عز وجل– وَمِنْ آيَاتِهِ: دي آيات حجج باهرات، المفروض تخلع قلوبنا خلعًا، ونزداد بها إيمانًا ورسوخًا في الإيمان.

الإمام الشافعي لما سئل هذا السؤال: بم عرفت ربك؟ فاستدل بورقة التوت؛ قال: تأكلها دودة القز فتخرج لنا حريرًا، وتأكلها النحلة فتخرج لنا عسلًا، وتأكلها الشاة والبعير والبقرة فتخرج لنا بعرًا وروثًا، سبحان الله هو المنتج واحد بس كل واحد بياخده في طريقه، لأن سبحان الذي خلق الخلق ثم هداهم –عز وجل–.

انظر إلى عجائب أمة النحل وما فيها، نظام كما ينبغي أن يكون، آية عجب في صنع النحل للمكان الذي يلقي فيه العسل، حاجة عجيبة جدًا –سبحان الله–، نظام لا يتخلف، النحلة التي تخرج عن النظام تُقْتَل فورًا، كله في عمل دائم.

أمة النمل وقصتها مع سليمان –عليه السلام–. كلب الصيد ده عجب، الكلب المعلم المدرب ده بيقولوا –سبحان الله– إذا رأي قطيع من الغزلان وحصلت المطاردة فإنه يفرق بين الصحيح وبين العليل، ويفرق بين الذكر وبين الأنثى، فيتبع الذكر دون الأنثى، مع إن معروف إن الذكر أقوي في السرعة من الأنثى، لكن الكلب يعلم أن الذكر إذا أحس بالخوف حبسه البول، يفضل بوله يضايقه ويضغط عليه لحد لغاية ما يوقفه عن الحركة فيمسكه الكلب، لأن الغزال ده زي الريح سرعته تفوق الكلاب وغيرها من الأمور التي تُعَلَّم الصيد. فسبحان من هدى هذا الكلب لهذا الأمر. أما الأنثى فرغم أن سرعتها أقل من الذكر لكنها تستطيع أن تتبول أثناء المطاردة فلا تقف، من الذي علمه هذا؟ إنه الرب –سبحانه وتعالى– الذي خلق كل شيء ثم هدى –عز وجل–.

الثعلب هذا المشهور عند الناس بالمكر والاحتيال، لما البراغيث تكثر عليه وتؤذيه ومش عارف يعمل فيها إيه، فيروح يلور لغاية ما يلاقي حتة قماشة من الصوف، يقوم يشيلها في فمه، وينزل في مايه لا يغرق فيها، ويفضل ينزل رويدًا فتقوم البراغيث تطلع لفوق، ينزل كمان شوية تطلع لفوق، ينزل شوية تطلع لفوق، لغاية ما تتجمع على رأسه، يبدأ يسيب فمه اللي فيه القطعة فوق وينزل برأسه في الماء فتقوم كل البراغيث تتجمع على قطعة الصوف، يقوم رميها في المايه ومنطلق وقد تخلص من الأذى الذي يجده من هذه الحشرات التي تؤذيه، من الذي علمه هذا؟ إنه الله –سبحانه وتعالى–.



ألم تسمعوا بما رواه الإمام البخاري عن عمرو بن ميمون –رحمة الله عليه– أنه رأى الرجم في أمة القرود قبل إسلامه في بلاد اليمن، وإن هو رجم معاهم، هذه القردة والقرد الذين زنيا –سبحان الله–. طبعًا رواية الإمام البخاري مختصرة ولكن الحافظ ابن حجر ذكر إن في معجم الإمام الإسماعيلي القصة بطولها، أنه قال: رأيت قردة ومعها قرد مسن، فمدت يدها والقرد المسن هذا وضع رأسه على يدها، ثم جاء قرْدٌ شاب فغمزها، فسلَّت يدها من تحت هذا القرد المسن سَلًا خفيًفا وانطلقت حتى وقع بها هذا القرد، ثم قام هذا القرد فزعًا وظل يشم في أنثاه هذا فعلم أنه قد حدث منها هذا الأمر المكروه، فصاح على أمة القرود فاجتمعوا، وراحوا دوروا لغاية ما جابوا المجرم ده الزاني ده، ووضعوه وسط الحلقة ثم جاءوا بالحجارة فظلوا يرمونهما حتى أخملوا أنفسهما. وعمرو بن ميمون قال فرجمتهما معهم –مع أمة القرود – سبحان الله. ما هذا؟! مع إن أمة القرود أمة غير مكلفة. ده كله من عجيب صنع المولى –سبحانه وتعالى– في خلقه.

الإمام أحمد لما سئل عن معرفة الرب، قال: ها هنا حصنٌ حصين، أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز –يعني بره أبيض وجوه أصفر زي الذهب–، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره –اتكسر هذا الحصن– فخرج منه بقى إيه؟– حيوانٌ سميٌع بصير، ذو شكلٍ حسن وصوتٍ مليح. يعني بذلك البيضة –واخد بالك؟– اللي بيخرج منها الكتكوت بإذن الله –تعالى–.

شوف البيضة مفيش فيها مسام، لا شباك بيدخل منه هوا للي جواها ولا حاجة سبحان الله! ولذلك يقول الشاعر:

تأمل في نباتِ الأرض وانظر ... إلى آثارِ ما صنع المليكُ
عيونٌ من لجينٍ شاخصاتٌ ... بأحداق كما الذهبُ السبيكُ
على قضب الزبرجد شاهداتٌ ... بـأن الله لـيس لـه شريـكُ

توحيد الألوهية

أما القسم الثاني من أقسام التوحيد –أو الثالث على ترتيبنا– فهو توحيد الألوهية، ومعناه الاعتقاد الجازم والإقرار الكامل والاعتراف التام بان الله هو الإله الحق، لا إله غيره ولا معبود سواه، المستحق للعبادة والخضوع والطاعة المطلقة،وكل معبودٍ سواه باطل.

وهذا التوحيد أحيانًا يسمى التوحيد الطلبي القصدي الإرادي، وأحيانا يسمى بتوحيد العبادة. قال الله –تعالى–: "إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ" أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، وقال الله –تعالى–: "وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ" المؤمنون:١١٧، وقال الله –تعالى–: "وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا" النساء:٣٦، وقال –سبحانه–: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ" الإسراء:٢٣، من أجل توحيد العبادة (الألوهية) خلق الله الجن والإنس "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" الذاريات:٥٦، إلا ليوحدون إلا ليطيعون، وقال الله –سبحانه وتعالى– مقررًا هذه الحقيقة: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ" الأنبياء:٢٥.

فتوحيد الربوبية –كما ذكرنا– يؤدي إلى توحيد الألوهية، فمن وحَّد الرب ولم يوحِّد الإله فقد أخطأ الخطأ العظيم وليس هو من التوحيد في شيء. ولذلك فإن الله –سبحانه وتعالى– أمرنا جميًعا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئًا.

وعبادته؛ هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، والعبادة لا تُقبل إلا بشرطين:

الشرط الأول: الإخلاص لله –عز وجل–.

الشرط الثاني: المتابعة للرسول –صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم–.

وطبعًا الكلام في توحيد الألوهية وتوحيد العبادة كلام كثير جدًا، لا نستطيع أن نحيط به في هذه العَجالة، لكن عاوزين نقول إن ده هو أصل



التوحيد، وهو المهم الأعظم للرسل، ومعظم خلاف الرسل مع أقوامهم كان بسبب هذا التوحيد، انظر إلى قوم نوح قالوا: "وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا" نوح٢٣:٢٤.

العرب اللي كانوا بيزعموا إنهم على ملة إبراهيم انظر كيف قابلوا النبي –صلى الله عليه وسلم–: "أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ" ص:٥، فمعظم معارك الرسل كانت في هذا الأمر لأن الناس يغويهم الشيطان، ويجعلهم يعبدون غير الله –سبحانه وتعالى– فيضلون في هذا التوحيد.

توحيد الأسماء والصفات

أما القسم الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات ومعناه: الاعتقاد الجازم بأن الله –عز وجل– له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو متصف بجميع صفات الكمال، منزّه عن صفات النقص، متفرّد بذلك عن جميع الكائنات والمخلوقات، سبحانه وتعالى.

قال الله –تعالى–: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" الأعراف:١٨٠، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: "إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا، مَن أحْصاها دَخَلَ الجَنَّةَ"[٣]، وقال الله –تعالى–: "فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" النحل:٧٤.

وهذا الباب من أصول السير فيه –حتى لا نضل كما ضلت الأمم السابقة وضل فئام من الناس المنتسبون للإسلام– أن نثبت ما أثبته الله لنفسه ورسوله –صلى الله عليه وسلم–. لإن فيه ناس دلوقتي ربنا بيثبت صفات حينما يقول: "تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ" تبارك:١، يقولك لا، اليد دي مش صفة لله –سبحانه وتعالى–، ده أثبت يد وأثبت يدين، "مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ" ص:٧٥، فيقولك لا، العرب بتقول إن اليد من معانيها القدرة، طيب هيبقى قدرتين؟! "مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ" أي بقدرتي؟! هذا شركٌ عظيم وقولٌ على الله بغير علم.

الاستواء؛ استوائه –سبحانه وتعالى– كما يليق بجلاله على العرش، يؤولونه بمعنى الاستيلاء، ويأتون ببيتٍ مكذوب على شاعر نصراني –الأخطل النصراني–:

قد استوى بشر على العراق　　　من غير سيف ولا دم مهراق

ويؤولون أشياء كثيرة أثبتها الله –سبحانه وتعالى– لنفسه أو أثبتها الرسول –صلى الله عليه وسلم– في صحيح سنته –عليه الصلاة والسلام–.

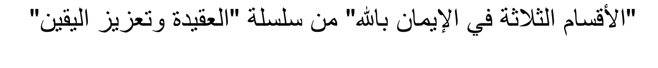
الأمر الثاني: الإيمان بها على الوجه الذي يليق به –جل جلاله–، لأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير –سبحانه وتعالى–.

الأمر الثالث: قطع الطمع عن إدراك الكيفية لصفات الله، لأنه كما لا يُعلَم ذات الله لا تُعلَم صفاته –عز وجل–، فاحنا بنؤمن مثلًا بأن الله استوى على العرش، وعلى المعنى الحق اللي هو المعروف من لغة العرب؛ الاستواء معناه الارتفاع والعلو والاستقرار، لكن لا نقول كيف استوى، كيف دي ده أمر بدعة، زي ما راجل جه للإمام مالك وقال للإمام: الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ قال: إن الاستواء معلوم والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا صاحب بدعة، أخرجوه من المسجد. خلاص انتهت المسألة.

فيبقى هذه الأصول الثلاثة إذا اعتصم بها الإنسان يسير في هذا الباب سيرًا حسنًا، ولا تحدث له مشكلة بإذن الله.

وطن نفسك إنك ما أثبته الله –عز وجل– ورسوله –صلى الله عليه وسلم– لله، من غير أن تؤول أو تخرج إلى معانٍ تظن أن فيها تنزيه لله وفي نفس الوقت أنت تقول على الله بغير علم، إذ تُثبت له ما ليس له أو أن تمنع منه ما قد أثبته لنفسه –سبحانه وتعالى–.

[٣] متفقٌ عليه





فنحن نؤمن بأن الرحمن على العرش استوى الإيمان الحق كما يليق بجلاله –سبحانه وتعالى–. "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ" فاطر:١٠، "يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ" النحل:٥٠، " أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَن فِي السَّمَاءِ"[4].

كذلك أيضًا نؤمن بأن أعظم المخلوقات هو عرش الرحمن –سبحانه وتعالى–، وأن الكرسي حق، كما ذكر الله صفته: "وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ" البقرة:٢٥٥.

نثبت لله –عز وجل– السمع والبصر: "إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ" طه:٤٦، نثبت له أنه يتكلم؛ وقت يشاء، كيف يشاء –سبحانه وتعالى–: "وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا" النساء:١٦٤، نثبت له الوجه –عز وجل– كما يليق بجلاله: "وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" الرحمن:٢٧، نثبت له أنه يُحب ويبغض –عز وجل–. ونثبت له صفة الغضب، ونثبت له صفة المجيء يوم القيامة، والنزول إلى السماء الدنيا كما يليق بجلاله –جل في علاه–.

وكذلك في الأسماء الحسنى نثبت إن الأسماء الحسنى ليست محصورة في التسع وتسعين اسمًا وأنها منثورة في الكتاب والسنة، فمن أحصاها حفظًا وعملًا ودعاءً فهذا يدخل الجنة كما قال النبي –صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم– ورحم الله الإمام الشافعي حينما قال:

آمنت بالله، وبما جاء عن الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء عن رسول الله، على مراد رسول الله. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

هذه الأمور التي إن أمنا بها على الوجه الصحيح كنا مؤمنين بالله –تبارك وتعالى–، ولا شك أن هناك ثمرات عظيمة جدًا إذا صح للعبد توحيده وإيمانه بالله، أنه يسعد في هذه الدنيا، "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" النحل:٩٧، إن ربنا –سبحانه وتعالى– يتولى أولياءه: " أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ" يونس٦٢:٦٣، إن ربنا –سبحانه وتعالى– يدافع عن الذين آمنوا: "إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا" الحج:٣٨، أنه –عز وجل– يهدي أهل الإيمان بإيمانهم: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ" يونس:٩.

أشياء كثيرة؛ ثمرات في الدنيا وكذلك في الأخرى، فأهل الإيمان هم المرفوعون عنده –عز وجل– قدرًا، والموحدون له –سبحانه وتعالى– يسكنون أعالي الجنان والفردوس العلى من الجنة، "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا" الكهف١٠٧:١٠٨.

نسأل الله –سبحانه وتعالى– الكريم المتعال، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أن يُثّبت علينا إيماننا، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، وأن يجعل الموت راحةً لنا من كل شر.

وبهذا نكون قد وصلنا في هذه الإطلالة السريعة، إلى نهاية الحديث عن الركن الأول ألا وهو الإيمان بالله –تبارك وتعالى– في مجموع الحلقتين الماضية وهذه، وإن شاء الله –عز وجل– إن كان في العمر بقية نستكمل رحلتنا بمشيئة الله –عز وجل– مع الأركان التي تلي ذلك؛ الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، إن شاء الله –تبارك وتعالى–.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، وإلى أن نلتقي أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

[4] صحيح البخاري

